الحركات الاستقلالية في المغرب العربي

للأستاذ عادل الفاسي

لم يسجل التاريخ صفحة من صفحات الكفاح القومي أنصع ولا أقوى من كفاح شعوب المغرب العربي في سبيل الدفاع عن حريتها واستقلالها ، ومقاومة الاعتداءات الاستعمارية التي دبرتها ضدها أمم لاتينية مدفوعة بتعصبها الديني وشرهها للسيطرة واستعباد الغير .

ولئن كان المغرب العربي ما يزال حتى الآن يرزح تحت ثقل الاستعمار الأجنبي فليس ذلك إلا لأن هذه الأمم اللاتينية تعاند كل العناد في الاعتراف بالحق ، وتأبى أن تتقهقر أمام القوات التحريرية ما دامت تجد من غفلة الإنسانية وتغاضي المتمدينين ما يفسح لها مجال الاخماد المؤقت للثورات التي ظلت أفريقية الشمالية مسرحا لها منذ مائة وسبع عشرة سنة .

وإذا كان تغلغل الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو الذي مهد السبيل لتحقيق المطامع الأجنبية في الشرق العربي فإنه لا يمكن أن يطمئن عرب المشرق على ديارهم وأمنهم ما ذامت أمم المغرب العربي خاضعة للمستعمرين ، وما دامت ديارهم قنطرة يمكن أن يجتازها الفاتحون ليصلوا إلى أهدافهم في هذا السد الإسلامي الذي حكم أسلافنا العرب في مصير العالم كله .

لذلك تعتبر الحركات الاستقلالية المغربية ذات أهمية عظيمة لا للمغاربة وحدهم بل لسائر العالم العربي الذي ينشد الاستقرار والطمأنينة والعدل والحرية . ويحق للعرب في سائر الدنيا أن يعنوا بهذه الحركات ويؤيدوها عنايتهم بالحركات المشرقية ، خصوصا وأن القائمين بها معرضون أكثر من غيرهم لمعجرفة الأجنبي وغطرسته ولدسائسه ومكره لاسيما بعد ما جربه المستعمرون من دهاء العرب وحسن تدبيرهم في الأقطار العربية التي حصلت على قسط لا يستهان به من الاستقلال .

* * *

اعتدت فرنسا على الجزائر في وقت كانت السيادة فيها للدولة العثمانية التي لم تستطع من المقاومة إلا قليلا ، ولكن ما استسلم الولاة الأتراك في الجزائر حتى بدأت المقاومة العربية التي افتتحها وصول الجيش المراكشي في أكتوبر سنة ١٨٣٠ لمدينة تلمسان ، حيث استطاع

نائب سلطان المغرب القائد أبو الحسن أن يؤلب قبائل الناحية من حوله ويسير بهم لمقاومة الفتح الفرنسى والاستسلام التركى ، ثم انضم إليهم الأمير محيى الدين عبد القادر البطل الجزائرى الشهير ، فكان له فضل تأسيس المملكة الجزائرية العربية المستقلة .

استمر الأمير الجزائرى يدافع عن استقلال مملكته الفتية المستقلة ستة عشر عاما كاملة انتهت بانتصار القوة الغاشمة على الحق . وكانت السلطة الفرنسية تغرس خلالها نفوذها فى داخل البلاد ، ولكن لتزرع فى نفوس الأهالى روح الثورة الدائمة التى ظل الضغط يخمدها أحياناً ، ولكن الطموح للتحرر يبعثها لتعلن حكم الشعب الجزائرى الذى لا يرضى بغير الاستقلال بديلا .

وقد رمت سياسة نابليون إلى التوفيق بين مطامح الأهالى ومصالح فرنسا وذلك بإعلان المساواة التامة بين العرب وبين الفرنسيين ، ولكن ذلك هاج هؤلاء الأخيرين الذين قاوموا كل عدل وانصاف للعرب . وما سقطت الإمبراطورية سنة ١٨٧٠ حتى تقدم « غامبتا » رب الجمهورية الثالثة بإعلان قانون (الأنديجينا) وتأسيس مبدأ الاستثناءات التشريعية .

ويعتبر هذا التحول فى السياسة الجزائرية فاتحة عهد الاستعباد الغاشم والاضطهاد الماكر فى الجزائر ، أى فى شمال أفريقيا كلها ، لأن الجزائر كانت المدرسة التى أخرجت أساتذة الخطوسة الاستعمارية الفرنسية .

وإزاء هذه التدابير الظالمة التى تبعثها سلسلة من الاضطهاد الدينى والعنصرى ثارت الجزائر مرة أخرى ثورة اندلع لهيبها فى بلاد زواوة ومقاطعة قسنطينة وعمالة الجزائر . وكان يتزعم الثورة الباش أغا الحاج محمد المقرانى والشيخ محمد الحداد شيخ الطريقة الرحمانية الدرقاوية .

واستمرت هذه الثورة الاستقلالية ستة أشهر كاملة كلفت عرب الجزائر ما لا يقل عن ستين ألف شهيد وكلفت الفرنسيين عشرين ألف قتيل ، ولم تخمد إلا بعد أن أطلق بسمارك سراح الجيش الفرنسى الذى كان معتقلا فى ألمانيا (بعد حرب السبعين) .

وبعد أن نجح الجيش الفرنسى فى إخماد هذه الثورة حكم على ستة آلاف من رجالها بالإعدام ، وأقصى من زعمائها أبا مزراق والشيخ الحداد وابنيه عزيزاً ومحمداً ومعهم خمسمائة من أعيان الثوار إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة فى المحيط الهادى ، واستمروا فى هذا المنفى القصى إلى أن ماتوا جميعا . وحكم على الجزائر نفسها بغرامة قدرها ستة وثلاثون مليونا من فرنك ذلك الوقت ، ولما عجزت القبائل عن دفعها قررت الحكومة مصادرة أملاكهم وإجلاءهم عنها وإحلال مهاجرى الألزاس واللورين فيها .

ولكن أثر هذه كان عظيما فى تقوية الوعى القومى فى نفوس الجزائريين ولم تلبث إلا قليلا حتى أعقبتها ثورة استقلالية كبيرة فى عمالة وهران بزعامة الباش أغا سليمان بن حمزة قائد (أولاد سيدى الشيخ) واستمرت هذه الثورة خمس سنوات كاملة بدون انقطاع .

وفى سنة ١٨٨٢ قامت ثورة القبائل الوهرانية بزعامة الشيخ أبى عمامة المراكشى ، واستمرت إلى سنة ١٨٨٥ .

وإلى جانب هذه الثورات المسلحة كان العمل السياسى يقوم بدعاية واسعة النطاق داخل الجزائر وخارجها ، ولكن الأقلام الجزائرية لم تتحرك بصفة منتظمة إلا منذ سنة ١٩١٠ ، حيث تكون الرعيل الأول من المثقفين العصريين وتأسست لجنة وطنية بزعامة أبى درية أول محام جزائرى (تخرج بعد مضى ٧٥ سنة على الحكم الفرنسى فى الجزائر) ومساعدة الصحافى السيد صادق دندان والنائب المالى الحاج عمار ، وكانت غاية اللجنة العمل على تحقيق الجامعة الاسلامية ولذلك ارتبطت بالحركات التحريرية القائمة فى الممالك العثمانية إذ ذاك .

وقامت أثناء الحرب الكبرى حركات ترمى لمنع الجيش من المحاربة إلى جانب فرنسا ، ففر من الجندية آلاف ، والتجأ من الشباب القادر على القتال بشواهق البلاد الجزائرية زهاء المائة والعشرين ألفا ، وقامت مظاهرات عديدة تطالب بالانفصال عن فرنسا ، وفر لجانب الدولة العثمانية التى أعلنت الجهاد المقدس فرقة الضابط الحاج محمد بوكابة برمتها ، فاضطر المسيو بريان إلى إعلان ضرورة القيام باصلاحات عملية فى الجزائر .

ولما انتهت الحرب الكبرى تكون وفد جزائرى برئاسة الأمير خالد ، وقدم للرئيس ولسن مذكرة يطالب فيها بتطبيق المبادىء الولسنية على الجزائر وتكونت حول الأمير خالد أثناء مقامه بفرنسا حركة مغربية أدت إلى عقد مؤتمر مغربى فى أواخر سنة ١٩٢٤ قرر العمل على تحرير الشمال الأفريقى ، وبعث برقيات تضامن لمصر والشام ومراكش تحيى الحركات التحريرية القائمة إذ ذاك ، وتدعو لضرورة تنسيق العمل وتوحيد الصفوف العربية للكفاح من أجل التحرر والوحدة .

ثم اصطبغت هذه الحركة بصبغة مجهود إسعاف نقابى فى دائرة جمعية النجم الأفريقى التى ترأسها صديقنا معالى الحاج وكان لها فضل حشد الطبقة العاملة من أبناء المغرب العربى فى فرنسا . وقد تطورت هذه الجمعية إلى حزب يطالب بحرية الجزائر ويكافح من أجل استقلالها .

وبينما كانت هذه الجمعية تقوم بعملها السياسى المنتظم كانت جمعية العلماء المسلمين

برئاسة الشيخ ابن باديس تعمل على تثقيف الشعب وتنويره وبعث الروح العربى الإسلامى فى نفوس أبنائه .

والتقى المجهودان معا بعد أن أعلن الشعب الجزائرى رفضه لسياسة جبهة المؤتمر التى كانت ترى تجنيس الجزائر بالجنسية الفرنسية كوسيلة لاستقلالها . فقد أعلن ابن باديس فى مجلة الشهاب لسان حال جمعية العلماء أن الجزائر بلاد غير فرنسا ولا يمكن أن تصبح هى فرنسا . بينما أسس مصالى الحاج حزب الشعب الجزائرى الذى حشد الشعب كله للمطالبة باستقلال المغرب الأوسط وانفصاله عن فرنسا .

ويمتاز زعيم حزب الشعب بكونه من أبناء الشعب ، فقد نبغ من بين العمال الجزائريين وأحس بآلامهم وتجرع غصص المعاملة السيئة التى يعامل بها الفرنسيون إخوانه الجزائريين ، لمسها فى نفسه كما أحسها فى إخوانه ، فكان له فضل الدعوة لتجمع القوة الجزائرية التى لم تضعف والانتباه إلى أن خير وسيلة لخلاص الجزائر هى فى توحيد صفوفها مع إخوانها المغاربة والعرب لتحرير المغرب العربى من السيطرة الأجنبية . وسوف يأتى اليوم الذى يعترف فيه التاريخ بالقيمة الحقيقية لهذا البطل الذى بعث الشعب من مرقده ، وقلب وجهته للطريق المستقيمة التى كان بعض البله يحولون بينه وبين السير فيها .

أما مطالب الشعب الجزائرى فهى مطالب التونسيين والمغاربة : الاستقلال التام والانضمام إلى الجامعة العربية ، والبعث الروحى والاجتماعى للشعب المغربى . وأما التضحيات التى تكبدها حزب الشعب ورجاله فتفوق ما تكبده غيرهم من المجاهدين الجزائريين ومع ذلك فإن شجاعتهم وثباتهم وصمودهم أمام المستعمر لايجازيه إلا أن نعمل جميعاً لتحقيق أمانيهم فى تحرير الجزائر العربية .

* * *

وطبعى أن تطمح فرنسا لبسط نفوذها على تونس ومراكش بعد أن تم لها فصلهما عن بعضهما باحتلال الجزائر . وقد قاومت تونس مقاومة دبلوماسية استمرت خمسين سنة ثم هاجمتها القوات الفرنسية فاستبسل أبناؤها فى الدفاع عن بلادهم ، ولما احتل الجيش الفرنسى سائر مناطق القطر التونسى ، التجأ فريق من الشعب إلى طرابلس ، حيث استمر فى تنظيم حرب عصابات بالجنوب التونسى حتى سنة ١٨٨٨ ، أى بعد أن تنازلت تركيا عن حقوقها فى تونس ولكن ذلك لم يجعل التونسيين يقبلون الحماية أو ينسون الاستقلال . وابتدأ عهد تكوين الحركات السياسية بمحاولات عديدة ، أهمها جماعة الحاضرة التى تأسست سنة ١٩٠٥ من الطلبة الذين

سبق أن أوفدتهم الحكومة التونسية قبل الحماية للدراسة فى أوربا ورجعوا إلى البلاد بعد إعلان الحماية عليها .

قامت هذه الكتلة بزعامة رئيسها السيد على أبى شوشة صاحب جريدة الحاضرة بحركة قومية ودينية كانت تتغذى بالروح الواردة عليها من مصر كصدى للدعاية التى قام بها جمال الدين ومحمد عبده وتقتدى بالحركة الوطنية التى أوقد لهيبها الزعيم الشاب مصطفى كامل . وكان لهذه الجماعة اتصال وثيق بالحركة الدستورية المراكشية التى كانت تنشر مقالات ضافية فى جريدة الحاضرة بعد الانفاق الودى الفرنسى الانجليزى سنة ١٩٠٤ .

وأعقبت هذه الحركة حركة أقوى وأكثر تنظيما هى حركة تونس الفتاة التى كان يتزعمها على باش حمبه والتى كانت تحذو حذو تركيا الفتاة .

استمر هذا الحزب يعمل لتأليب الرأى العام التونسى ضد الفرنسيين واتصل بسائر الحركات القائمة فى العالم الإسلامى وكانت له يد كبرى فى توطيد النفوذ العثمانى المعنوى فى تونس والجزائر ، ولم يزل كفاحه يعلو وينخفض حتى وقعت كارثة الجلاز سنة ١٩١١ حيث أضرب عمال الترام أمداً طويلا ووقع صدام عنيف بين التونسيين والجالية الإيطالية كبد الطرفين عديداً من القتلى والجرحى فاغتنم المقيم العام الفرنسى مسيو أ . لابوتيت الذى كان من أمهر المستعمرين الفرنسيين هذه الفرصة واعتقل زعماء الوطنيين على باش حمبه وأخاه محمدا وعبد العزيز الثعالبى وعبد الجليل الزاوش والبشير الصفر وحل حزب تونس الفتاة .

وقد أبعد على باش حمبه والثعالبى للخارج فسافر الثانى للشرق ثم عاد إلى تونس . وأما الأول فالتجأ إلى الإستانة حيث تولى رئاسة التشكيلات مدة الحرب الكبرى وكانت له يد طولى فى الدعاية للعثمانيين وتنسيق حركات المؤتمر الإسلامى الذى تجول رجاله فى أوروبا المحايدة يطالبون بتحرير الشمال الأفريقى والقضاء على مبدأ الاستعمار من أصله .

ويعتبر على باش حمبه أنبغ شخصية أنجبتها تونس فى تاريخها الحديث .

ولما انتهت الحرب الكبرى تشكل وفد برئاسة الثعالبى فسافر لفرنسا وقدم مذكرة للرئيس ولسن يطالب فيها باستقلال تونس ، وأثناء مقامه بفرنسا أصدر كتابه تونس الشهيدة الذى كان له صدى كبير فى الأوساط اليسارية فى فرنسا والخارج .

أما فى داخل تونس فقد اتصل أنصار الثعالبى بسمو الباى وطلبوا منه منح البلاد نظاما دستوريا فوعدهم سموه بتحقيق رغبتهم ، وإزاء هذا الوعد الصريح قرروا تأسيس حزب جديد

أطلقوا عليه اسم الحزب الحر الدستورى التونسى ، وقد عبروا عن غايتهم من تأسيس هذا الحزب فى البيان الذى أذاعوه على الشعب والذى جاء فيه : « الغاية من تأسيس هذا الحزب هى تبليغ الوطن رشده وتحريره من الاستعباد ، كى يصبح الشعب التونسى حراً متمتعا بكامل الحقوق التى تتمتع بها الشعوب الحرة . وهو يريد أن يصل لهذه الغاية عن طريق التحقيق العاجل لنظام دستورى يسمح لهذا الشعب بحكم نفسه بنفسه وفاقا للأسس التى يسير عليها كل العالم المتمدين » .

وقد ترأس الثعالبى هذا الحزب بعد رجوعه ، وقام بنشر دعوته وتشكيل شعبه وهيئاته فى سائر القطر فاضطرت الحكومة الفرنسية إلى إحداث تغيير موقت فى سياستها وذلك بإعفاء المقيم فلا ندان وتعيين مسيو لوسيان سان خلفا عنه .

وما وصل المقيم الجديد يوم ٦ يونية سنة ١٩٢١ حتى تقدم لمقابلته وفد عرف بعد بوفد الأربعين ، فأكد له المقيم العام عدم استعداده للتفاهم مع الوطنيين على غير ما يرجع للاصلاحات الداخلية لأن تغيير النظام التونسى من اختصاص الحكومة الفرنسية نفسها ، ثم توجه الوفد لمقابلة سمو الباى الناصر الذى أعلن تضامن العرش مع الشعب فى مطالبه واستعداد جلالته فيما يخصه للمصادقة على تكوين حكومة دستورية . وقد وقعت مشادة كبيرة بين الناصر باى وبين الإقامة العامة لم تنفرج إلا بعد موت الناصر فى ظروف مشبوهة ؛ حينئذ سافر الثعالبى سنة ١٩٢٣ للشرق حيث قام بتمثيل بلاده أصدق تمثيل وشارك فى كثير من المؤتمرات الإسلامية والعربية بمصر والشام والعراق وفلسطين والهند ، ولم يرجع إلى وطنه إلا سنة ١٩٣٦ . واستمرت الحركة بعده تحت إشراف اللجنة التنفيذية التى واصلت كفاحها وفق ما كانت تسمح به ظروف الضغط والإرهاق ، وكان من أهم ما أشرفت عليه إعداد الشباب التونسى الذى تقدم للميدان للخطو بالحركة الدستورية خطوة واسعة إلى الأمام .

وقد اشتركت الأجيال التونسية كلها فى مقاومة المحاولات التى بذلها الفرنسيون لفرنسة تونس عن طريق التمسيح أو طريق التجنيس .

وفى مؤتمر قصر الهلال ولد يوم ٢ مارس ١٩٣٤ حزب الدستور التونسى الجديد برئاسة الدكتور الماطرى وانتخب السيد الحبيب أبو رقيبة أمينا عاما للديوان السياسى الذى لم يكن يختلف فى مبادئه واتجاهاته عن اللجنة التنفيذية التى استمرت تمثل الدستور القديم بزعامة السيد الطاهر الصافى والصالح فرحات ومحيى الدين القليبى

واستمر الكفاح الدستورى متواصلا منذ سنة ١٩٣٨ إلى أثناء الحرب حيث اعتقل زعماؤه مراراً وسجن أنصاره وحكم بالإعدام على الكثير من أفراده .

ولما ارتقى محمد المنصف بن الناصر عرش أسلافه الكرام فى أغسطس سنة ١٩٤٢ . نشط الحركة التونسية وقرب إليه رجالها وطالب الحكومة الفرنسية بتحقيق آمال الشعب التونسى ولكن موقفه وكفاحه هالا الفرنسيين ، فتولى الجنرال جيرو بمجرد ما نزل الحلفاء بتونس أقصاءه عن العرش وإبعاده إلى منفى بو بفرنسا حيث ما يزال يعانى إرهاق الفرنسيين وسوء معاملتهم له .

وفى أثناء الحرب الأخيرة تكونت حول الديوان السياسى الموقت الذى كان يترأسه الدكتور الحبيب ثامر حركة فدائية مهمة ، وقد حكم بالإعدام على الدكتور ثامر وثلة من رفقائه ونفذ الحكم فى بعضهم بينما نجح الآخرون فى الالتجاء إلى مصر والشام حيث التحقوا بالزعيم أبى رقيبة لمواصلة العمل فى ظل الجامعة العربية .

ولما ألقت الحرب الأخيرة أوزارها عقد المكافحون التونسيون مؤتمراً عاما شاركت فيه اللجنة التنفيذية باسم الدستور القديم والديوان السياسى باسم الدستور الجديد والاتحاد النقابى التونسى العام ، وأساتذة جامع الزيتونة واتحاد الموظفين التونسيين ، وشخصيات تونسية مستقلة وبعد أن استعرض المؤتمر الحالة ودرس الاعتبارات القائمة صرح :

١ — « بأن الحماية نظام سياسى واقتصادى يتناقض مطلقاً مع حقوق السيادة ومع مصالح الشعب التونسى الضرورية فى الوقت الذى لم يقم فيه بأية مهمة تمدينية كما يدعى » .

٢ — « وأكد أنه تبين بعد تجربة سبع وستين سنة فشل هذا النظام بما قام عليه من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان » .

٣ — « وأعلن أن الاستقلال العاجل الكامل من غير قيد ولا شرط هو النظام الوحيد الذى يمكن أن يصلح غلطات الماضى ويحمى مصير شعب رشيد » .

٤ — « كما أعلن حق الشعب التونسى الذى لا يزول فى أن يستعيد استقلاله وحريته .

* * *

وظلت مراكش تقاوم التهافت الاستعمارى عليها منذ احتلال الجزائر إلى سنة ١٩١٢ ، حيث فرض عليها عقد الحماية الذى أدى إلى تقسيمها إلى ست مناطق :

١ — منطقة موريطانيا أو أقصى الجنوب المراكشى التى اقتطعت من البلاد تماما وألحقت بأفريقيا الغربية الفرنسية .

٢ — ومنطقة الحماية الإسبانية .

٣ — ومنطقة الحماية الفرنسية .

٤ — ومنطقة طنجة الدولية .

٥ — ومنطقة موريطانيا الاسبانية .

٦ — ومنطقة المقتطعات التى ألحقتها السلطة الفرنسية بالجزائر .

حينئذ دخلت المقاومة المراكشية فى طور الدفاع المسلح عن وحدة التراب المغربى واستقلاله ، ولم يستول الفرنسيون والأسبان على أهم المدن المراكشية إلا بعد قتال عنيف استمر ثلاثة أعوام كاملة ثم أعلنت الحرب الكبرى ، والمغرب كله — باستثناء بعض الشواطىء — فى ثورة عنيفة على الأجنبى ، وكانت مناطق الثورة منقسمة إلى أربعة أقسام :

(١) جهالة والريف .

(٢) مركز الأطلس المتوسط .

(٣) الأطلس الكبير بجنوب المغرب .

(٤) تافيلالت وآيت عطا بالجنوب المغربى أيضا .

وقد استمر الكفاح فى هذه المناطق كلها ثلث قرن كامل من غير انقطاع ، وضرب المراكشيون فى الدفاع عن استقلالهم من أنواع البطولة والشجاعة ما شهد به الجميع ، وظلت الحرب الريفية مثالا يحتذى فى البلاد العربية وغيرها . وظل اسم الأبطال المغاربة وفى مقدمتهم أسد الريف محمد بن عبد الكريم الخطابى رمزا للمقاومة القومية المستميتة التى يتأسى بها المنكوبون فى كل جهات الأرض .

وقد كان لهذه المقاومة المسلحة فضل فى توحيد البلاد المغربية معنويا ، والقضاء على روح القبلية التى عمل الأجانب على بثها من مرقدها وتشجيعها بما سنوه من سياسة القواد الكبار وما أسسوه من نظام الإقطاعية الجديدة الذى لم تعرفه مراكش من قبل .

وكان للحرب الريفية بصفة خاصة فضل بعث ثقة الأمة بنفسها ، إذ ما كان المغاربة يعتقدون أن لهم من القوة الروحية مايستطيعون به هزم دولتين عظيمتين فى عدة مواقع كبيرة ، وبذلك فإن نهاية حرب الريف وضياع النصر العسكرى لم يفت فى عضد المراكشيين ولم يبعث فى نفوسهم اليأس الذى كان ينتظره خصمهم .

وإذا كان العهد الذى يفصل بين ١٩١٢ و ١٩٣٠ يمتاز بالمقاومة العسكرية ، فإن الحركة السياسية ظلت موازية للعمل العسكرى تؤيده وتعضده خصوصا أثناء الحرب الكبرى ، حيث التجأ عديد من المغاربة من بينهم السيد أحمد العتابى للأستانة ، وانضموا للمؤتمر الاسلامى الذى كان يجمع كثيرا من المجاهدين أمثال الأمير شكيب أرسلان ومحمد فريد وعلى باش حمبة . وقد بذلوا جهدا كبيرا لإقناع الدول المحايدة كالسويد والنرويج وغيرهما بالاعتراف باستقلال المغرب وتأييد رجاله . كما كانت الحركة السلفية فى الأوساط الجامعية تعمل عملها لتنوير الأذهان ، ومقاومة بعض المتصوفة الذين انضموا للأجنبى يؤيدونه باسم الدين ، والدين من أعمالهم براء

وما كاد عهد المقاومة المسلحة ينتهى حتى برزت الحركة الوطنية السائدة اليوم فى شكل الاحتجاج على السياسة البربرية التى كان ظهير ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ أكبر مظاهرها .

كان لقيام هذه الحركة الفاجئ اندهاش عظيم فى الأوساط الاستعمارية الفرنسية خصوصا وقد استطاعت أن تلف من حولها بسرعة فائقة الشعب كله فى سائر المناطق المراكشية ، وقد أظهر فيها الشعب المجاهد من التضحية والفداء ما لا يقل عما عرف عنه فى أوقات الكفاح المسكرى ، وكان لهذه الحركة صداها فى العالم الاسلامى كله حيث قدم المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها احتجاجاتهم على سلوكها أزاء الإسلام فى المغرب ، وتأسست فى مصر وسوريا والعراق والهند وأندونسيا لجان للمحافظة على إسلام البربر ، وتأكدت بذلك وبالمجهودات التى بذلها الحاج الحسن أبو عياد بمصر روابط الحركة المغربية بالحركات العربية والاسلامية فى المشرق . وتأسست منذ ذلك العهد كتلة العمل الوطنى التى تعتبر أول حزب سياسى بالمعنى الحديث أسس فى مراكش بعد الحماية .

وفى سنة ١٩٣٣ وضعت الكتلة برنامج الاصلاحات المغربية ، وهو عبارة عن كراسة تحتوى على سائر ما يتوقف عليه المغرب من إصلاحات لينهض ، وقد قدم للحكومة الفرنسية وجلالة الملك وأيده الشعب بمظاهرات عديدة انتهت بالاعتقال المتكرر للزعماء وأنصارهم .

وفى سنة ١٩٣٦ عقدت الكتلة مؤتمرا فوق العادة قررت فيه قائمة المطالب المستعجلة التى يجب على إدارة الحماية تنفيذها حالا ، وكلها راجعة للحريات الديمقراطية والاصلاح الاقتصادى والاجتماعى وضمان حقوق الفرد والجماعة ، وتحسين حالة الفلاح والصانع والعامل . وقد وقع اصطدام عنيف بين الكتلة والحماية أدى لاعتقال علال الفاسى ومحمد اليزيدى ومحمد الوزانى ، فأعلنت البلاد كلها تضامنها مع رجال الكتلة وقامت مظاهرات عديدة بفاس

ومراكش والرباط والبيضاء ذهب ضحيتها كثير من القتلى والجرحى كما اعتقل أثناءها آلاف من الوطنيين المراكشيين .

وحينما قامت الثورة الأسبانية بزعامة فرانكو بالمنطقة الخليفية ، وسدت الحدود بين شمال البلاد وجنوبها ، تقرر أن تنقلب كتلة الشمال التى توفى زعيمها الحاج عبد السلام بنونة إلى حزب يعمل حسب الخطة التى تقتضيها ظروف المنطقة الخليفية إذ ذاك ، فتأسس حزب الاصلاح الوطنى برئاسة الأستاذ عبد الخالق الطريس . وفى الوقت نفسه نظمت كتلة العمل فى المنطقة السلطانية نفسها ، وفتحت مركزها العام برئاسة علال الفاسى ، ولكن إقبال المنخرطين على الكتلة هاج السلطات الفرنسية ، فأقفلت دارها واعتقلت كثيرا من أنصارها غير أن ذلك لم يفت فى عضدنا ، ولم يمض شهر كامل حتى كنا قد أعدنا فتح المركز العام والتشكيلات التابعة له باسم الحزب الوطنى . سار الحزب الوطنى يبذل الجهود الجبارة لخدمة القضية المغربية ، وتنظيم الجمهور المراكشى ، ولكن اضطهاد السلطة لأنصاره وبطشها برجاله أدى به إلى عقد مؤتمر عام انتهى باعلان الميثاق الوطنى الذى يقضى بالمعارضة الكاملة للاقامة العامة وعدم التعاون مع الحكومة مادام النظام الاستعمارى قائما .

وعلى أثر إعلان هذا الميثاق اعتقل رئيس الحزب الوطنى علال الفاسى ونفى للجابون بأفريقيا الاستوائية الفرنسية ، كما نفى عمر عبد الجليل ومحمد اليزيدى وأحمد مكوار ومحمد الوزانى لمختلف مراكز الصحراء المراكشية .

وقد ثار الشعب ثورة عنيفة استمرت شهرا كاملا واستعمل لقمعها الجيش الفرنسى حربته فى ضرب العزل من السلاح وتقتيلهم واضطهاد المعتقلين منهم .

واستمرت الحركة سائرة سيرها الطبيعى متعاضدة مع حزب الاصلاح ، ومؤيدة بحركة الوحدة المغربية التى أسسها الأستاذ المكى الناصرى .

وفى يناير سنة ١٩٤٤ قرر الحزب الوطنى أن يدعو لمؤتمر عام تشترك فيه سائر الهيئات القومية فى البلاد ، فانعقد المؤتمر وقرر تأسيس حزب الاستقلال من الحزب الوطنى وغيره من الهيئات والشخصيات المعروفة فى المنطقة السلطانية .

وفى ١١ يناير سنة ١٩٤٤ قدم الحزب الجديد ميثاق الاستقلال لجلالة الملك وممثلى الدول الأجنبية فى المغرب ويشتمل الميثاق على :

١ — اعلان الاستقلال والوحدة الترابية لجميع مناطق مراكش .

٢ — المطالبة بتكوين نظام ديمقراطي شبيه بالأنظمة التي اتبعتها مختلف الحكومات الإسلامية.

وقد أبلغ جلالة الملك الميثاق رسمياً للحكومة الفرنسية بعد ما عقد مؤتمراً عاماً لممثلي السلطة المغربية فأقروه ، وأعطاه مولانا الملك بتأييده قوة الحق الذي لا شك فيه . ثم أخذت وفود الشعب المغربي من النساء والرجال تنهال على القصر الملكي (طيلة أسبوع التضامن) معلنة تأييدها لجلالة الملك ولميثاق الاستقلال ، وأعقب ذلك قمع عنيف لم يتقدم له مثيل في البلاد .

وكان لإطلاق الزعماء المبعدين سنة ١٩٤٦ أثر فعال في تغذية الحركة الاستقلالية التي خطت خطى فسيحة إلى الأمام وقد التف الزعماء كلهم حول جلالة الملك الذي ما انفك يوالي جهوده لإنقاذ البلاد وتحريرها .

وفي أثناء الزيارة الملكية لمدينة طنجة في شهر أبريل سنة ١٩٤٧ أعلن الملك أمام ممثلي الأحزاب المغربية وجمهور الشعب أن مطالب مراكش هي نفس المطالب العربية ، وأن مصير المغرب العربي مرتبط بمصير المشرق العربي وفوز الجامعة العربية .

* * *

أما الكفاح الذي يبذله رجال الحركات الاستقلالية في المغرب العربي فينقسم إلى نوعين :

١ — مقاومة المحتل الفرنسي والأسباني والعمل على تحرير المغرب من احتلالهما البغيض وتمتعه بالاستقلال التام في دائرة الجامعة العربية .

٢ — القيام بمجهودات جبارة لتحسين حالة المغاربة والنهوض بهم .

وفي كل من الجبهتين تقوم الأحزاب المغربية بأعمال جليلة توشك أن تؤتي ثمرها بإذن الله .

ومن مزايا الحركات الاستقلالية المغربية أنها شعرت بضرورة التضامن بينها مع تعدد أقاليمها فبذلت مختلف الوسائل لتنسيق أعمالها وتوحيد اتجاهاتها وانتهت إلى عقد مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة في فبراير سنة ١٩٤٧ ، وقد قرر هذا المؤتمر توحيد المكاتب المغربية في الشرق ضمن مكتب المغرب العربي وتأسيس لجنة تنسيق عليا لحركات الشمال الأفريقي .

ولما التجأ سمو الأمير محمد بن عبد الكريم إلى حمى الفاروق العظيم واستقر بالقاهرة كان أول عمل قام به هو دعوة الزعماء المغاربة للالتفاف من حوله ، وقد تحقق بفضله ما أمله المؤتمر فتأسست لجنة تحرير المغرب العربي برئاسته الدائمة .

ويتضمن ميثاق اللجنة المبادئ التالية :

(ا) المغرب العربى للاسلام كان وللاسلام عاش وعلى الإسلام سيسير فى حياته المستقبلة

(ب) المغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة وتعاونه فى دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الأقطار العربية أمر طبعى ولازم .

(ح) الاستقلال اللازم للمغرب العربى هو الاستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة تونس والجزائر ومراكش .

(ى) لا غاية يسعى إليها قبل الاستقلال .

(ه) لا مفاوضة مع المستعمر فى الجزئيات ضمن النظام الحاضر .

(و) لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال .

(ز) للأحزاب الأعضاء فى لجنة تحرير المغرب العربى أن تدخل فى مخابرات مع ممثلى الحكومة الفرنسية والأسبانية ، على شرط أن تطلع اللجنة على سير مراحل هذه المخابرات أولا بأول .

(ع) حصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط عن اللجنة واجبها فى مواصلة الكفاح لتحرير البقية .

وعلى ضوء هذه المبادئ تسير لجنة التحرير فى توجيه الحركات الاستقلالية المغربية مستمدة قوتها من الأحزاب الممثلة فيها ومن شخصية رئيسها بطل الريف العظيم .

وإن فى وجود هذه اللجنة بالقاهرة التى هى عاصمة الجامعة العربية أكبر دليل على ما يعلقه المغاربة من آمال على هذه الجامعة الخطيرة وما يحملونه بين جوانحهم من تمسك بمبادئ الوحدة العربية وتضامن بين شعوب العرب . ولقد ظهر التضامن عظيما بين جناحى النسر العربى فى قضية الحرب التحريرية التى دخلتها الجامعة العربية لإنقاذ فلسطين المقدسة . ونحن لا نشك فى أن هذا التضامن سيستمر كل يوم فى ازدياد حتى يتم تحرير العالم العربى رمته ويسير العرب إخوانا متحدين للعمل على خير الإنسانية وإسعاد الناس .

عمر الفاسى

الأمين العام للجنة تحرير المغرب العربى